

النظام القبلي في الجنوب الجزائري
قبيلة ذوي منيع أنموذجا
Tribal System in the South of Algeria
Study case: Dwi Mnie

د. مزوري مومن

جامعة طاهري محمد / بشار - الجزائر

m.mazouri@yahoo.com

ملخص:

مثلت القبيلة دائرة حياة العديد من المجتمعات، محاطة بسياج من التقنيات والسلوكات التي تحفظ للمنتهين إليها حياتهم واستقرارهم وتطورهم. وسارت كمؤسسة منتظمة ومنضبطة سواء في علاقاتها بأفرادها أو في علاقتها بغيرها. وقد تمكنت من صياغة ترسانة من القوانين والأعراف في مختلف الجوانب: سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية لتعزز الروابط بين أفرادها وتضمن الولاء لها. وبالتالي تحقق الاستمرارية والبقاء.

كلمات مفتاحية: القبيلة، الفرد، الجماعة، القوانين، العرف، الولاء.

ABSTRACT:

The Tribe triangle is a circle of life for many communities which are surrounded by fence of techniques and behaviors that preserve their lives, stability and development. It has acted as a regular and disciplined institution both in its relationship with its members and in its relationship with others. It has been able to formulate an arsenal of laws and customs in various aspects : political, military, economic, social and cultural in order to strengthen the ties between its members and ensure loyalty to them thus a tribe achieves continuity and survival.

Keywords : tribe, individual, group, laws, custom, loyalty.

=====

مقدمة:

مثلت القبيلة دائرة لحياة العديد من المجتمعات محاطة بسياج من التقنيات والسلوكات التي تحفظ للمنتمين إليها حياتهم واستقرارهم وتطورهم، فكانت البناء الأول الذي قامت عليه المجتمعات ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ سورة الحجرات، الآية 13. ونواة القبيلة الأسرة لأنها لا تتمكن من التشكل إلا بتوفر مجموعة قد تكثر أو تقل من الأسر.

I التأسيس:

لقد تشكلت القبيلة العربية عموماً في الصحراء كنواة تجمع مجموعة من الأفراد تربطهم روابط دموية، ولاعتبارات إستراتيجية تمكنت القبيلة النواة من استقطاب مجموعات أخرى عن طريق التصاهر أو ببناء الأحلاف خاصة مع من هم دونها عدداً وقوة، كما يتم الاستقطاب في أحيان أخرى باستجلاب المنقطين عن قبائلهم لأسباب ما وكذا المستجلبين لممارسة مهنة بعينها لا يمارسها أهل القبيلة مثل الحدادين، ينضاف إلى هذا استجلاب العبيد.

II ماهية القبيلة:

تمايز الباحثون في تعريفهم للقبيلة، فحاول كل أن ينظر إليها من زاوية اهتمامه في المجال البحثي والغايات المرسومة لذلك كما هو الشأن بين المؤرخين وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيين والأدباء وعلماء الاستعمار .
وتجنباً للمشاحة أرى أنه لا بد أن يوضع مفهوم القبيلة في إطاره التاريخي بعيداً عن الاستعمالات الإيديولوجية¹ لأننا في المقام الأول أمام ظاهرة أوجدها التاريخ في إطار قفزة نوعية أثبتتها العقل البشري في محاولته إنشاء النظام لتحقيق استقرار الحياة وضمان الاستمرارية لها، وبهذا النهج في الدراسة تصبح القبيلة بالتالي موضوعاً للتفسير وليس مجرد منطلق لتفسير سيروية تاريخية معينة²

ولتعريف القبيلة لابد أولاً أن نقف على ما اشترطه علماء الاجتماع لنشوء أي تجمع بشري، فهم يشترطون لقيام أي جماعة وجود عنصرين هما: الاستقرار المكاني وعاطفة الجماعة.

ونحن لما ننظر في ظروف القبيلة وحيثياتها، نجد أن هذين العنصرين متوفران في القبيلة، التي تتألف أصلاً من مجموعة عشائر. فإن كانت بدوية مرتحلة، فلها دائرتها المكانية رغم أن هذه الدائرة تتغير من حين لآخر، لكنها تملك حق شبه التملك للمكان، من خلال السيطرة على هذا المكان الذي يتراوح ما بين المرعى الممتد إلى مقاطعة جغرافية في حجم دولة صغيرة كلبنان أو قطر. ويكون ذلك تحت الحاجة التي تفرضها ظروف القبيلة نفسها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية. وهي لما تملك هذه الدائرة تنتقل فيها وفق ما تقتضيه ظروفها العامة. وأما إذا استقرت هذه العشائر في مكان واحد ينشأ بين أفرادها تضامن أقوى تشد من أزره رابطة القرابة.

إن « فالقبيلة عبارة عن اتحاد يمتاز من الناحية المورفولوجية بالقدرة على الاستمرار وعلى المحافظة على استمرار صلات وروابط الدم القائمة بين أفراد القبيلة التي أوجدت هذا الاتحاد، أو هذه الوحدة بين الأفراد والجماعات داخل القبيلة، وإن الشعور القوي بالوحدة يرتبط في أساسه بالإضافة إلى روابط الدم بالأرض التي تعيش عليها القبيلة وبوحدة الهدف والمصير والمعيشة المشتركة والتاريخ والحضارة واللغة والدين»³

وفي الموسوعة العربية الميسرة نجد التعريف التالي: «القبيلة مجموعة من الناس يتكلمون لهجة واحدة ويسكنون إقليمًا واحدًا مشتركًا يعتبرونه ملكًا خاصًا بهم»⁴

وأما قاموس علم الاجتماع فيقدم لنا ثلاثة مفاهيم يمكن إجمالها في الآتي:

1 القبيلة تمثل نسفاً في التنظيم الاجتماعي يتضمن عدة جماعات محلية، مثل القرى والبدنات والعشائر، وتوطن القبيلة عادة إقليمًا

معينا ويكتنفها شعور قوي بالتضامن والوحدة يستند إلى مجموعة من العواطف الأولية.

2 القبيلة تمثل تجمعا كبيرا أو صغيرا من الناس يستغلون إقليما معينا ويتحدثون اللغة نفسها وتجمعهم علاقات اجتماعية خاصة متجانسة ثقافيا.

3 القبيلة تمثل وحدة متماسكة اجتماعيا ترتبط بإقليم، وتعتبر في نظر أعضائها ذات استقلالية سياسية⁵.

أما إذا تطرقنا إلى تعريف القبيلة مثلما ورد في معجم علم الاجتماع، وجدناه يطابق بين مفهومي القبيلة والائتية وينفي البعد القرابي، فهو تعريف يعتمد نموذج القبيلة الأفريقية أساسا لوضع تحديد لمفهوم القبيلة⁶. وتتقسم القبيلة في داخلها إلى نوع من الانشطاري. يعني نظام التشريح القبلي، تشريح القبيلة إلى جماعتين متكاملتين، كان استعماله الأول يعني النظام القرابي الثنائي (أي جميع أقارب الأب وأقارب الأم) وقد استعملته الكتابات الفرنسية بكثرة خصوصا دوركهايم وموس في محاولتهما تصنيف المجتمعات البدائية، كما استعمله العالم الاجتماعي الانجليزي رادكليف براون في دراسته لقبائل استراليا الغربية، بالإضافة إلى العالم الأمريكي غيفورد⁷.

ويعرف بيشلر القبيلة بأنها "شكل انقسامي للتنظيم الاجتماعي يتكون من أقسام قاعدية يمثل كل منها أسرة ممتدة في عمق ثلاثة أو أربعة أجيال، وكل قسم قاعدي يلتحم تلقائيا مع قسم آخر كلما شعر بتهديد أو خطر. وشيئا فشيئا يمكن أن تتحد القبيلة بأسرها، أو مجموعة قبائل، في مجموعة مؤقتة لمواجهة عدوا خارجي⁸".

وعلى هذا الأساس تذهب رحمة بورقية إلى أن هناك فرقا كبيرا بين التجمع القبلي، والتحالف القبلي، والاتحاد القبلي. وترى أن المصطلح الأخير هو الذي استخدمته المدرسة الأنثروبولوجية على نطاق واسع، وكذا السوسولوجيا

الكولونيالية. أما التجمع القبلي فهو الذي يضم مجموعة قبائل تكون فروعاً في الاتحاد القبلي⁹

III مكونات القبيلة:

الأسرة: الخلية الأولى وتترتب عادة من أب وزوجة أو عدة زوجات وأولاد يطيعون والدهم حق الطاعة ويؤولون جميع تصرفاته تأويلاً حسناً وينظرون دوماً إليه بعين الإجلال والاحترام .

العشيرة: وهي المشتملة على عدد من الأسر تنتمي إلى جد واحد، وترتبط برابطة القرابة الوشيحة.

البطن: وهو الذي تجمع عشائره شتى جوانب الصهر والجوار والمنفعة المشتركة.

القبيلة: وتنتهي في القمة بالقبيلة التي تحتوي في الغالب على عدد من البطون تؤلف بينها وحدة الدم والنسب، وتشمل في النادر بطناً أو عدة بطون من غيرها، انحازت لها وانضافت إليها في أوقات بعيدة أو قريبة لسبب من الأسباب، فأصبحت معدودة منها بحكم الحكم والولاء.

أما قبيلة ذوي منيع فقد كان قدمها إلى المنطقة مع الهجرة الهلالية الثانية في القرن 17 م. ويرى دو لامارتيينيير De La Martinière أنهم من عرب المعقل الذين استوطنوا بلاد المغرب في القرن 11م¹⁰ أبوهم الأول عبد الله بن عبد الكريم المعقلي، ترك خمسة أولاد وهم: سالم، بوعنان، إدريس، جلول ويوسف. هؤلاء الأولاد هم الذين تفرعت منهم القبائل الخمس بحيث كونوا اتحاداً فيدرالياً¹¹.

بينما نجد رأياً آخر عند ابن خلدون الذي يرى أن قبيلة ذوي منيع هي من قبائل بني عامر وتتنمي إلى منيع بن مغيث بن محمد بن الغريب بن الحارث أو الحرث بن عامر بن مالك بن زغبة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن هوازن بن قيس بن عيلان الناس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان¹².

أرى أن الرواية الأولى أقرب إلى الحقيقة لأن هناك ما يرجحها، ف دو لامارتيينيير De La Martinière عايش المنطقة وسكانها وسمع من شيوخها ودون بدقة ما قيل

له في أوانه، كما أن ذوي منيع وشيوخهم لا زالوا إلى اليوم يصرحون بأن أصولهم الأولى من اليمن¹³.

و تتفرع هذه القبيلة على الشكل التالي:

1. أولاد بلقيز: أبوهم سالم الأول وينقسمون إلى:
 - أ. الأعشاش: وفيهم المطران وأولاد العوفي وأولاد بوزيان.
 - ب. المظافرة: وفيهم أولاد حمو وأولاد عيسى وأولاد وأولاد علي.
 - ت. أولاد جابر: وفيهم أولاد جابر وأولاد يعقوب والسنيينات.
2. أولاد بوعدنان: وينقسمون إلى:
 - أ. الخضرة: وفيهم الذيابات وأولاد عبد الواحد والخويصيين
 - ب. أولاد عامر: وفيهم السوالم وأولاد يعيش والعبادلة والبقارة
3. الإدارة: وينقسمون إلى:
 - أولاد علي وأولاد رزوق والغيوث وأولاد نصير.
4. أولاد جلول: وينقسمون إلى:
 - أولاد عبد الرزاق والمساعدة والرحامنة
5. أولاد يوسف: وينقسمون إلى:
 - أولاد اعمر وأولاد سعيدان والمعرقبيين وأولاد عايد والهوايشيين والمرابطيين

IV النظام القبلي:

المجال: لكل قبيلة محيطها الخاص الذي تعيش فيه منعزلة عن غيرها من القبائل أو شبه منعزلة، فلها في حالة ما إذا كانت مستقرة ترابها الوطني، وفي ما إذا كانت راحلة مجالها الحيوي الذي تدافع عنه حتى الاستماتة وتمنع غيرها من القبائل أن تتجعد مراعيه أو تستقر فيه.

الرئيس: وهو شيخ القبيلة الذي تجتمع عليه كلمتها وعادة ما يكون أكبر سنا وأشد مراسا وتجربة.

المجلس: جماعة تنظر في المصالح وتحكم في الخصومات، وتقرر في شؤون السلم والحرب والصلح والديات.

القانون: مجموعة قوانين وأعراف تحدد الأحكام وتبين الحلال والحرام.

اللغة: لهجة تتميز إلى حد ما عن سائر اللهجات، بفعل الانغلاق اللساني.

V القبيلة طور من أطوار التطور الاجتماعي:

أقر القرآن الكريم سنة التعدد التكويني الاجتماعي، ومضمونها انتماء الناس لوحدات تكوين اجتماعية متعددة في المكان هي أطوار تكوين اجتماعي بتتابعها خلال الزمان مثل: الأسرة، قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً". والعشيرة، قال تعالى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ". والعشيرة، قال تعالى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ". والقبيلة والشعب، قال تعالى: "وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" سورة الحجرات 13. والأمة التي مناط الانتماء إليها أولاً للسان لا النسب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليست العربية بأحد من أب ولا أم إنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي". وثانياً الأرض الخاصة، أي الديار بتعبير القرآن، قال تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين" الممتحنة 8

وموقف الإسلام من علاقات الانتماء المتعددة (العشائرية القبيلة...) لوحدات أطوار التكوين الاجتماعي السابقة هي علاقة تحديد لا إلغاء. سأل وائلة الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم" رواه ابن ماجه وأحمد.

VI التنظيم السياسي:

يتميز الوطن العربي بكونه أرضاً صحراوية غالب أرضها رمالا تذرؤها الرياح وهضاباً لا تنبت شيئاً تدعى الحمادة وإن كان بها بعض الواحات التي يغرس عليها النخيل وقليل من الزرع. وقد نتج عن هذا حتمية انتقال العرب وراء الماء وبحثا عن الكلاء. هذا كله أنشأ النظام القبلي كنتيجة وضرورة اجتماعية وحيوية ليتمكنوا من التنقل في جماعات عشائر تكون قادرة على توفير الحماية

والأمن لأفرادها، ولم يقتصر وجودها على البادية فقط بل تعداها إلى الحواضر على قلتها وتتاثرها في الصحراء المترامية.

والقبيلة في الصحراء الجزائرية ومنطقة وادي قير والساورة على الخصوص قامت على أساس نظام متفق عليه يضمن لها الاستمرارية ويحقق النظام الداخلي لأفرادها بحيث يؤدي الالتزام به إلى الاستقرار والقوة والنصر، ومن ذلك سلطة المشيخة، التي تمثل مجلس الشورى الذي يترأسه شيخ القبيلة مع مجموعة من الأعضاء. ويصل عدده أربعين عضواً، في قبيلة ذوي منيع. وعنه قال الشيخ علي بلعيد في قصيدة له:

سَالُ الدِّيَّةِ تُقُولُ لَكَ عَنْهُمْ مَا كَانَ آيْتُ رُبْعَيْنِ فِي احْكَامِ المَشُورَةِ

و يمثل مجلسهم هذا مكان المناقشة والحوار والتنظيم السياسي والعسكري وحل النزاعات، ولا يتكون إلا من الشيوخ والشعراء والحكماء وراجحي العقول والأغنياء وأصحاب الخبرة في القتال. ويبث هذا المجلس في مسائل كثيرة منها: مسائل الحرب والتفاوض مع القبائل الأخرى أو مع الاحتلال الفرنسي، وفي إنشاء التحالفات كتحالف زغدو (Zegdou) الذي جمع بين قبيلة ذوي منيع وقبيلة أولاد جرير. فكلما تعرضت القبيلة إلى تهديد مباشر أو هجوم من غيرها، تلجأ الجماعة إلى عقد جلسة طارئة لمناقشة المستجدات وغالبا ما يتخذ قرار الحرب بالإجماع باعتماد التصويت بالغالبية. وعند تبني قرار الحرب يُنتخب القائد العام الذي عادة ما يكون حكمه مطلقا وبدون نقاش وتخوله الجماعة كامل الصلاحيات، فهو الذي يملك حياة أو موت المقاتلين المنضوين تحت قيادته¹⁴.

كما يبيت المجلس في القضايا ذات الطابع الاقتصادي كتشكيل القوافل التجارية وتحديد مسارها تبعا للضرورة والحاجة والموسم، واختيار العناصر التي تتكفل بتوفير الحماية لها خاصة تلك التي كانت تسلك الطرق الصحراوية أو تتجه إلى جنوب الساحل الصحراوي، أو التي تمر بمناطق تقطنها قبائل معادية كقبيلتي آية عطا الأمازيغية وبني قيل العربية بجنوب شرق المملكة المغربية. ويقوم أيضا بتقسيم الأراضي الفلاحية، وتنظيم عملية الري الفلاحي الذي كثيرا ما كانت تنشب

عنه نزاعات بين الفلاحين. كما كان المجلس يبيث في القضايا ذات الطابع الاجتماعي كالزواج والطلاق والميراث والتكفل بالأيتام والأمهات الثكلى خاصة بعد المعارك والحروب وضمّان العيش لهم. كما يقوم بالفصل في النزاعات وتمثيل القبيلة في مختلف المناسبات¹⁵.

والقبيلة لما أسست نظامها ذلك، إنما تقوم بعملية الضبط الاجتماعي الذي يمكنها من تحقيق السيطرة على أفرادها من خلال ما تستخدمه من قوانين وأعراف لكل ما من شأنه تحقيق النظام والتوافق الاجتماعي. لذلك يمثل شيخ القبيلة ونائبه السلطة العليا لتنفيذ وتحقيق الضبط الاجتماعي. إن هذا النظام له أثر كبير كأسلوب ردع يدرأ الجريمة ويمنع الانحراف وذلك بما تحظى به القبيلة من تضامن وترابط وعادات وأعراف سوية تعمل على تقوية وحدتها، حتى تضمن لنفسها البقاء والاستمرار وتتمكن من دفع الخطر عن أفرادها.

لقد عملت القبيلة على تحقيق النظام وفرض الضبط من خلال ما ابتكرته من أعراف وعادات وسلوكات تساهم في إنتاج الفرد المنضبط والمتقاني في خدمة قبيلته إلى درجة التضحية بالمال والنفس التي تفرضها عصبية الانتماء القبلي، حتى قال قديما بعض شعرائها ومنهم:

دريد بن الصّمة:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غُزِيَّةٍ إِنْ عَوْتُ عَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشُدُ غُزِيَّةٌ أُرَشِدُ

أبو تمام:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَ

وأما في مجال تحقيق القانون وتوقيع العقوبات فقد لجأت إلى مجموعة من الوسائل الاجتماعية تمثلت في: الدية، التشهير، الذم، النفي والطرده من القبيلة، وإيقاع العقوبة بمن يخرج عن طوعها أو يخالف أعرافها بما ينسجم مع طبيعة الجرم المقترف بعدما يقوم مجلس الأعيان والشيوخ بالنظر في طبيعة المشكلة وذلك من باب توحيد السيطرة على القبيلة بتداول الرأي والمشورة ومن ثم الانتهاء من المشكلة بالحل الأنسب لها كطريقة تحقق العدل في محاكمة المجرم، وفعل

ردعي يكبح جماح كل من تسول له نفسه ارتكاب أي جريمة أو الإساءة إلى القبيلة والمساس بسمعتها.

VII التنظيم الاجتماعي:

مادام أن القبيلة تشكل مجتمعا بشريا فإن الحياة داخلها تتطلب شكلا من التنظيم الاجتماعي يضمن استمراريتها وتوسعها، ويحقق لأفرادها العيش في رفاة وطمأنينة. لذلك كان لزاما الالتزام بمجموعة من المتطلبات نذكر منها:

الزواج: يشكل الزواج في القبيلة ركيزة تقوى بها القبيلة خاصة وأنها ترى القوة في العدد. تشجع القبيلة على الزواج المبكر وعلى كثرة النسل وعلى تعدد الزوجات. وتحبذ القبيلة أن يكون الزواج بين بني العمومة ثم الذين يلونهم، ولا يخرج الزواج إلى خارجها إلا في حالات نادرة أو لضرورة بعينها.

لاعتبارات خاصة منها الحرص على بقاء أفراد العائلة الكبرى داخل سياجها، والاطمئنان إلى أن بنت العم لا ينجر عن الارتباط بها أية مشاكل لتعودها على أفراد هذه العائلة التي شبت وترعرعت فيها، ولا يشعرون بأي تغير طارئ على طبيعة العائلة الكبرى إلا الارتباط الرسمي بين شاب وابنة عمه.

وليس للمرأة أن تعترض على زواجها حتى لو كانت غير راغبة في ذلك العريس لا اعتبارات كثيرة منها: الحياء، وتقديم كلمة الشيوخ على الرغبة الخاصة، والحرص على إرضاء الوالدين، وهو نمط سلوكي كرسته القبيلة في إخضاع المرأة للرجل وإعطائه الأفضلية مقابل ما يقوم به خدمة لها.

كما كان تعدد الزوجات شائعا في قبيلة ذوي منيع لا يعترض عليه أحد ولا يترح منه أحد. فقد كان بعض رجال القبيلة يعمدون إلى تعديد الزوجات من اثنتين إلى أربعة نساء. وهم إنما يفعلون ذلك لمصلحة خاصة كمرض الزوجة الأولى أو عقرها، أو ترميل ابنة العم أو العممة أو الخال أو الخالة، أو طلبا للمساعدة والخدمة إذا كان الرجل من أغنياء القوم، فواحدة لا تتمكن من القيام بجميع شؤونه، وهنا قد يكون الزواج خارج دائرة العشيرة وإن كان دائما في حدود القبيلة ونادرا ما يتجاوزها.

وقد سنت لذلك أعرافا وتقاليد تساعد على تحقيق هذه المهمة تقام في الأعراس كالسماح باختلاط الجنسين في مناسبات الأعراس، وقول شعر الغزل الذي يذكر أسماء النساء وقد يزيد ذكر أسماء آبائهن أو إخوانهن. قال الشيخ بوشيبة الجبلاي:

هَمُّ الْجَوْلَةِ طَالُ بِبَيْكُ وَتَشْلُوحُ بِنَا وَقُولُ لَيْمِيَّةَ خَاطِرِي فَنِي
خَيْتُ امْحَمَّدُ يَا الْعَامَّةَ تَشْبَهُ شَنْيَالُ الْمَلَاظِمَةِ وَيُنُ الْهَمِّي بِالرِّجَالِ نَاسُوا ائْتَعَانِي

وقال بوشبة الغنامي:

وَاشْ اَدَانِي مَنْ قَبِرُ جِبْتِ تَشْكِي مَنْ حَرَ هَوَاهَا

رَاعَبَ رَوْرَةَ لَشْرِيفَةَ النَّسَا مَوْلَاةَ الْخُلْخَالِ

وَاشْ يَلَاقِي بِالْعَزَالِ مَسْعُودَةَ رَهْوِ الْبَالِ

بل قد تلجأ بعض الأمهات إلى دفع المال للشعراء من أجل قول الشعر في بناتهن كنوع من الإشهار لهن. أو كالسماح للفتيات العازبات أو المطلقات أو الثكلى بالرقص في المناسبات كنوع من التشهير بأنفسهن. ويحدث ذلك في رقصة هوبي عند قبيلة ذوي منيع، ورقصة الماية عند قبيلة الغنائمة. وفي ذلك قال شاعر القبيلة في بداية رقصة هوبي:

رَاهُ رَأْسُ النَّبْكَةِ مَعْلُومٌ فِيهِ مَارَةٌ الْبِنَاتُ يَدْلُوحُوا يَمِينًا وَيَسَارًا

الترفيه: مادام أن أفراد القبيلة يقومون بأشغال كثيرة وشاقة، فهم يحتاجون إلى شيء من الترفيه يحقق الراحة ويكسر روتين الحياة اليومية ولذلك اجتهد أفراد القبيلة في ابتكار طرق لذلك منها: قول الشعر، والذي مثل وسيلة اتصال رفيعة المستوى أعطت للشاعر إجلالا وتقديرا، بل أصبح الشاعر لسان القبيلة يرفع من قيمتها ويزيد في هيبتها ويدافع عنها ويهاجم من يريد مسها بسوء من القبائل الأخرى.

ومنها رواية القصص والأحاديث، والمسامرات الليلية، التي تروض العقل على فهم الأحداث واستخلاص العبر والاستفادة من تجارب وخبرة الماضي بما

يساعد على حسن إيجاد الحلول لما يعترض من مصاعب ومشاكل في الواقع المعيش.

كما اهتموا بالرقص (رقصة هوبي)، وألعاب العقل (لعبة السيق، الضامة وتشبه الشطرنج، فك الألغاز). وكلها نماذج إيجابية لألعاب تنمي القدرة العقلية. الرياضة: لم تتخذ القبيلة الرياضة كهدف في حد ذاتها يحقق المتعة فقط، بل رأت فيها وسيلة للتدريب البدني والتحضير للمعارك العدوانية والدفاعية. فالقبيلة في الصحراء لم تكن لتدافع عن نفسها فقط، بل تضطر في بعض الأحيان إلى التعدي على غيرها لأسباب اقتصادية أو اجتماعية. ومن الرياضات التي اعتمدها: الفروسية، سباق الخيل والإبل، السباحة، المصارعة البدنية وكرة العصي.

VIII التنظيم الاقتصادي:

الحياة في المجتمع تقوم على الاقتصاد لأنه عصب الحياة ولذلك أقامت القبيلة نظاما اقتصاديا يحقق لأفرادها العيش بما يحقق استمرارية الحياة. والقبيلة في الصحراء قام اقتصادها على تربية الأغنام والإبل كأهم رأس مال لاقتصادها، والاشتغال بالزراعة في مواسم بعينها. وعلى هذا الأساس تقوم المبادلات التجارية مع قبائل أخرى أو بيع المنتج في الأسواق القريبة والبعيدة. وقد لجأت بعض القبائل كقبيلة ذوي منيع في أوقات الشدة والقحط والجفاف إلى الغزو والسلب باستهداف القبائل الضعيفة ومباغثة القبائل القوية. كما اعتمدت نظام حماية القبائل الصغيرة مقابل إتاوات يدفعونها لها.

IX خلاصة:

القبيلة في حد ذاتها لها معنى إيجابي هو علاقة انتماء إلى القبيلة كوحدة تكوين اجتماعي، كما أن لها معنى سلبي هو محاولة للعودة إلى الطور القبلي، كطور تكوين اجتماعي تجاوزه التطور الاجتماعي.

لقد حققت القبيلة أدوارا إيجابية في مراحل سابقة في تاريخ الشعوب إذ حققت فكرة العيش في جماعة، ووضعت قواعد تنظيم الحياة الجماعية بما يضمن الاستمرارية ويحقق المصلحة العامة. وكان لها شأن عظيم في حماية شخصيات مهمة في تاريخ الإنسانية إذ أمدتهم بالدعم ودافعت عنهم، بل أوصلت بعضهم إلى تحقيق الهدف والغاية. فبعض الأنبياء كانت أسرهم وقبائلهم دعما لهم في القيام بمهمة الدعوة للرسالة التي بعثوا بها. فنبي الله لوط - عليه السلام - احتاج في أحلك الظروف إلى قبيلة تحميه وركن يؤويه ليدافع عن أضيافه لما هجم عليه الرعاع والسفلة والسفهاء (قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد). هود80. وما منع قوم شعيب - عليه السلام - من التعرض له إلا قبيلته ورهطه، دعا قومه إلى التوحيد وأمرهم بالإنصاف وعدم الظلم، ولما ضجروا منه (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك). هود91. ونفس ذلك حصل مع النبي صالح - عليه السلام - ومع رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - وقبيلته قريش وبني هاشم.

أما السلبات فأولها العصبية المقيتة ورفض الآخر والتعاضد معه وتفضيل القبيلة على كل ما سواها. والقبيلة لا تقبل أن تختفي طوعا أو أن تصهر في قبيلة أخرى، فلا يحصل ذلك إلا إذا قهرت بالقوة أو نزلت بها خطوب¹⁶.

إذا كان سبب نشوء القبيلة بمعناها السلبي محاولة الناس البحث عن حل لمشاكلهم من خلال علاقات أضيق من الأمة التي حالت عوامل معينة دون أن تبرز كطور يمكن للناس من خلاله حل مشاكلهم، أو الوطن الذي حالت عوامل معينة دون أن يكون بالنسبة للقبائل الشعوب التي يضمها بمثابة الكل للجزء، يحده فيكملة ويغنيه ولكن لا يلغيه، فإن هذه المحاولة لن تنجح أيضا من خلال القبيلة بمعناها السلبي، ذلك أنها محاولة فاشلة للعودة إلى طور تكوين اجتماعي تجاوزه التطور الاجتماعي، ذلك أن القبائل وإن لم تلغى كوحدة تكوين اجتماعي في أطوار التكوين الاجتماعي التالية للطور القبلي إلا أنها تحولت في هذه الأطوار من كل قائم بذاته، كما في الطور القبلي، إلى جزء من كل هو الأمة والوطن.

هوامش:

- ¹ عبد الكريم الخطيبي: النقد المزدوج، مطابع عكاظ 1990 ص 13
- ² المختار الهراس: القبيلة والدورة العصبية قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع المغربي، مجلة المستقبل العربي ص 65
- ³ سعيد بن فالج الغامدي: البناء القبلي والتحضر في المملكة العربية السعودية
- ⁴ محمد شفيق عربال، مشرف: الموسوعة العربية الميسرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت مج 2، 1987
- ⁵ محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ط2، 2009 ص 57
- ⁶ ينظر دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة بيروت ط2، 1986 ص 247
- ⁷ محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ص 57
- ⁸ Jean Beachler. Tribu. Dictionnaire de sociologie. Librairie. Larousse. Paris 1990.
- ⁹ محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ص 57
- ¹⁰ De La Martinière, (H.M.P), Lacroix. (N), Documents Pour Servir à L'Etude Du Nord-Ouest Africain, T2, Gouvernement General De L'Algérie, Alger, 1897, p584.
- ¹¹ مزوري مومن: الشعر الملحون في منطقة العبادلة، مذكرة ماجستير في الأدب العربي، جامعة تلمسان، 1999 - 2000 ، ص 8
- ¹² ابن خلدون عبد الرحمان: تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، دار ابن حزم، بيروت، 2004، ص 177
- ¹³ من هؤلاء الشيوخ حمداوي سليمان مولود عام 1940 شيخ من شيوخ قبيلة ذوي منيع بطن أولاد بوحنان فخذ أولاد عامر عرش أولاد عبد الله (العبادلة) فرقة أولاد احمد، وعضو سابق في المجلس الشعبي الوطني

¹⁴ Céard L. : Gens et Choses de Colomb Bechar Archives Institut Pasteur d'Algérie, Tome 11, N 01, Alger, mars 1933, page 71

¹⁵ Ibid, page 72

¹⁶ عبد الله حمود: الشيخ والمريد، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار تويقال 2000 ص 103